

التفسير المختصر - سورة القصص (٢٨) - الدرس (٤-١٨) : تفسير الآيات ٨-١٣ ، إن فرعون وهامان وجنودهما كانوا خاطئين.....

لفضيلة الدكتور محمد راتب النابلسي بتاريخ: ١٩٩٥-٠٩-٠١

بِسْمِ اللَّهِ الرَّحْمَنِ الرَّحِيمِ

الحمد لله رب العالمين، والصلاة والسلام على سيدنا محمد الصادق الوعد الأمين، اللهم لا علم لنا إلا ما علمتنا إنك أنت العليم الحكيم اللهم علمنا ما ينفعنا وأنفعنا بما علمتنا وزدنا علماً، وأرنا الحق حقاً وارزقنا اتباعه وأرنا الباطل باطلاً وارزقنا اجتنابه، واجعلنا ممن يستمعون القول فيتبعون أحسنه وأدخلنا برحمتك في عبادك الصالحين.

أيها الإخوة الكرام، لازلنا في قصة سيدنا موسى عليه وعلى نبينا أفضل الصلاة والسلام، بعد أن التقطه آل فرعون ليكون لهم عدواً وحزناً، قال تعالى:

﴿إِنَّ فِرْعَوْنَ وَهَامَانَ وَجُنُودَهُمَا كَانُوا خَاطِئِينَ (٨)﴾

[سورة القصص]

وصلنا إلى هنا في الدرس الماضي.

قال تعالى:

﴿وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةَ عَيْنٍ لِي وَلَكِ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَكِدًا وَهُمْ لَنَا

يَشْعُرُونَ (٩)﴾

[سورة القصص]

المنطق يشير إلى أن هذا الطفل ما ألقى في اليم إلا لأنه من أطفال بني إسرائيل، مع أن فرعون جزم بقتل كل أطفال بني إسرائيل، فلذلك ألقى الله تعالى حباً هذا الطفل في قلب امرأة فرعون، قال تعالى:

﴿وَقَالَتِ امْرَأَةُ فِرْعَوْنَ قُرَّةَ عَيْنٍ لِي وَلَكِ لَا تَقْتُلُوهُ عَسَىٰ أَنْ يَنْفَعَنَا أَوْ نَتَّخِذَهُ وَكِدًا وَهُمْ لَنَا

يَشْعُرُونَ (٩)﴾

[سورة القصص]

لا يشعرون أن هذا هو الطفل الذي سيقتضي على ملك فرعون؟ يؤتى الحذر من مأمنيه، ولا ينفع ذا الجد منك الجد، ولا ينفع حذر من قدر ولكن ينفع الدعاء مما نزل وما لم ينزل، وما أخذت الاحتياطات وغطيت الاحتمالات، ومهما سددت الثغرات، الله غالب على أمره وإذا أراد الله بقوم سوءاً فلا مرد له، وإذا أراد إنفاذ أمر أخذ من كل ذي لب لبه، وما شاء الله كان وما لم يشأ لم يكن، ولا حول ولا قوة إلا بالله، لم يشعروا أن هذا الطفل سيغدوا نبياً ويواجه فرعون وسيبغعه فرعون ويغرق هو ومن معه، ويورث بنو إسرائيل ملك فرعون من بعده.

قال تعالى:

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٠)

[سورة القصص]

بعد أن أَلَقْتَهُ، فالأمّ أمّ وامتلاً قلبها قلقاً عليه، قال تعالى:

﴿وَأَصْبَحَ فُؤَادُ أُمِّ مُوسَىٰ فَارِغًا إِنْ كَادَتْ لَتُبْدِي بِهِ لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٠)

[سورة القصص]

أي من شدة قلقها وخوفها، كادت أن تقول: ابني في قصر فرعون لولا أن ربط الله على قلبها، لذلك النبي عليه الصلاة والسلام قال:

عن النّوّاس ابن سمعان الكلابيّ قال سمعتُ رسولَ الله صلّى الله عليه وسلّم يقولُ:
((مَا مِنْ قَلْبٍ إِلَّا بَيْنَ إصْبَعَيْنِ مِنْ أَصَابِعِ الرَّحْمَنِ إِنْ شَاءَ أَقَامَهُ وَإِنْ شَاءَ أَزَاعَهُ وَكَانَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ يَقُولُ يَا مُتَّبِتِ الْقُلُوبِ ثَبَّتْ قُلُوبَنَا عَلَىٰ دِينِكَ قَالَ وَالْمِيزَانَ بِيَدِ الرَّحْمَنِ يَرْفَعُ أَقْوَامًا وَيَخْفِضُ آخَرِينَ إِلَىٰ يَوْمِ الْقِيَامَةِ))

[رواه ابن ماجه]

وقال تعالى:

﴿هُوَ الَّذِي أَنْزَلَ السَّكِينَةَ فِي قُلُوبِ الْمُؤْمِنِينَ لِيَزْدَادُوا إِيمَانًا مَعَ إِيمَانِهِمْ﴾

[سورة الفتح]

فالله تعالى أحياناً يمنحك قُوّة التّحمّل، وأحياناً يجعلُ مُقاومتَكَ هشةً، تجد رجلاً صامداً لأقصى الحوادث، وآخر ينهار لأتفه الحوادث، فمن الذي يُعطي قُوّة التّحمّل؟ الله جل جلاله، من الذي يُفقدُ هذه القُوّة؟ الله جل جلاله، فالله تعالى يمكنه أن يربط على قلبك، وكما يمكنه أن يجعله كفوؤاد أم موسى! قال تعالى:

﴿لَوْلَا أَنْ رَبَطْنَا عَلَىٰ قَلْبِهَا لِتَكُونَ مِنَ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (١٠) وَقَالَتْ لِأُخْتِهِ قُصِّيهِ

[سورة القصص]

تتبعي أخباره، قال تعالى:

﴿فَبَصَّرَتْ بِهِ عَنْ جُنْبٍ وَهُمْ لَا يَشْعُرُونَ﴾ (١١) وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ

[سورة القصص]

قالوا: هذا التحريم ليس تحريم تشريع بل هو تحريم منع، هذا الطّفل الصغير أعطِيَ أوّل مرضيّة فرفضها، وكذا الثانية والثالثة، فأية مرضيّة غير أمّه رفضها، قال تعالى:

﴿وَحَرَّمْنَا عَلَيْهِ الْمَرَاضِعَ مِنْ قَبْلُ فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ

نَاصِحُونَ﴾ (١٢)

[سورة القصص]

قال تعالى:

﴿فَقَالَتْ هَلْ أَدُلُّكُمْ عَلَىٰ أَهْلِ بَيْتٍ يَكْفُلُونَهُ لَكُمْ وَهُمْ لَهُ نَاصِحُونَ (١٢)﴾

[سورة القصص]

لأنَّ الله تعالى قال:

﴿وَأَوْحَيْنَا إِلَىٰ أُمِّ مُوسَىٰ أَنْ أَرْضِعِيهِ فَإِذَا خَفْتِ عَلَيْهِ فَأَلْقِيهِ فِي الْيَمِّ وَلَا تَخَافِي وَلَا تَحْزَنِي إِنَّا رَادُّوهُ إِلَيْكَ وَجَاعِلُوهُ مِنَ الْمُرْسَلِينَ (٧)﴾

[سورة القصص]

هذا كَيْدُ الله، ومكرُهُ تعالى، لكنَّ كَيْدَ ومكرَ الله فيه الخير، والله يعلم السرَّ وأخفى. خطرَ ببالي مثل وأنا في طريقي إليكم، شاحنة قوتها ثمانون حصان مُنْدَفِعَةٌ، ما الذي يوقفها؟! الذي يوقفها شيء أمتن منها وأصمَد شاحنة أو جدار، لكن أحياناً شريط كهربائي في مُحركِ الشاحنة لو قطعَ وقفتَ! فما هو الأحسن أن توقفَ بصدمٍ أم بقطعِ هذا الشريط؟! فالله أقوى الأقوياء، كل شيء بيد الله، ففرعون أمر بذبْح كل الأطفال ولكن هذا الطِّفْل قالت له زوجه هو قرّة عين لي ولك! فما قتله قال تعالى:

﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَىٰ أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ (٢١)﴾

[سورة يوسف]

قال تعالى:

﴿فَرَدَدْنَاهُ إِلَىٰ أُمِّهِ كَيْ تَقَرَّ عَيْنُهَا وَلَا تَحْزَنَ وَلِتَعْلَمَ أَنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (١٣)﴾

[سورة القصص]

فلو عُرضَ عليك مال حرام تحلّ فيه كلُّ مشاكلِك، وقلت أنت: لا إني أخاف الله ربَّ العالمين، والله تعالى وَعَدَ المستقيم بالفوز والعاقبة والتوفيق، والنجاح والطمأنينة، ولكنَّ الله يعطيك مهلةً يمتحنك فيها تستقيم وتعف عن الحرام، بعد حين يأتي الفرج، قال تعالى:

﴿وَعَدَ اللَّهُ الَّذِينَ آمَنُوا مِنْكُمْ وَعَمِلُوا الصَّالِحَاتِ لَيَسْتَخْلِفَنَّهُمْ فِي الْأَرْضِ كَمَا اسْتَخْلَفَ الَّذِينَ مِنْ قَبْلِهِمْ وَلَيُمَكِّنَنَّ لَهُمْ دِينَهُمُ الَّذِي ارْتَضَىٰ لَهُمْ وَلَيُبَدِّلَنَّهُمْ مِنْ بَعْدِ خَوْفِهِمْ أَمْنًا يَعْبُدُونَنِي لَا يُشْرِكُونَ بِي شَيْئًا وَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ فَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ (٥٥)﴾

[سورة النور]

وقال تعالى:

﴿إِنَّ اللَّهَ يُدَافِعُ عَنِ الَّذِينَ آمَنُوا إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ خَوَّانٍ كَفُورٍ (٣٨)﴾

[سورة الحج]

وقال تعالى:

﴿وَلَيَبْصُرَنَّ اللَّهُ مَنْ يَبْصُرُهُ إِنَّ اللَّهَ لَقَوِيٌّ عَزِيزٌ (٤٠)﴾

[سورة الحج]

كل هذه الوعود لا بد من أن تُحقَّق، وزوال الكون على الله أهون من أن لا تُحقَّق هذه الوعود. فالله تعالى قال:

﴿وَمَنْ أَعْرَضَ عَنْ ذِكْرِي فَإِنَّ لَهُ مَعِيشَةً ضَنْكًا وَنَحْشُرُهُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ أَعْمَى﴾ (١٢٤)

[سورة طه]

مهما حصلت من الأموال الطائلة، ومن العلاقات، فإن الله جعل لك وعيداً فإله وعد المستقيم بالفوز، ووعد المتصدق بنماء المال، ووعد الطيبين بالطيبات، ووعد المؤمن بالحماية والتوفيق والتأييد والنصر قال تعالى:

﴿وَقَالَ اللَّهُ إِنِّي مَعَكُمْ لَئِنْ أَقَمْتُمُ الصَّلَاةَ وَآتَيْتُمُ الزَّكَاةَ وَآمَنْتُمْ بِرُسُلِي وَعَزَّرْتُمُوهُمْ وَأَقْرَضْتُمُ اللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا لَأُكَفِّرَنَّ عَنْكُمْ سَيِّئَاتِكُمْ وَلَأُدْخِلَنَّكُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِنْ تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ فَمَنْ كَفَرَ بَعْدَ ذَلِكَ مِنْكُمْ فَقَدْ ضَلَّ سَوَاءَ السَّبِيلِ﴾ (١٢)

(سورة المائدة)

وأكثر الناس لا يعلمون أن وعد الله حق، قال تعالى:

﴿وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٢٨)

[سورة سبأ]

ما عليك إلا أن تستقيم على أمره، ولا يحميك إلا أن تكون على أمره ومطيعاً له، وأقبل على الحلال، واركل الحرام، ففي الحلال بركة فعلى الإنسان أن يطبق الشرع وينتظر وعد الله، وحبدا لو قرأ الإنسان القرآن الكريم والنقط وعود الله، والعد ثمنه الطاعة، قال تعالى:

﴿وَمَنْ يُطِعِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ فَازَ فَوْزًا عَظِيمًا﴾ (٧١)

[سورة الأحزاب]

وقال تعالى:

﴿وَلَنْ يَجْعَلَ اللَّهُ لِلْكَافِرِينَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا﴾ (١٤١)

[سورة النساء]

امرأة ترمي ابنها في البحر، وتغدو بعد حين مرضعة له !! صندوق وضيع باليم، وسيرته الرياح، ووقف أمام غصن، وأهيمت امرأة فرعون أن تنزل الشاطئ، وألقى حبه في قلبها، ورجت زوجها أن لا يقتله، وعرضوا على الطفل المراضع فأبى ! ثم جاءت أخته تنقصى أخباره، ودلتهم على مرضعة يقبلها والتي هي أمه، وهذا تدبير الله عز وجل، قال تعالى:

﴿وَقَدْ مَكَرُوا مَكْرَهُمْ وَعِنْدَ اللَّهِ مَكْرُهُمْ وَإِنْ كَانَ مَكْرُهُمْ لِتَزُولَ مِنْهُ الْجِبَالُ﴾ (٤٦)

[سورة إبراهيم]

مكر الكفار مخيف، إحدى الدول القوية تقول: عندي قنابل نوية أدمر بها الأرض خمس مرات !! فدمرها الله قبل أن تدمر شيئاً، فأنت أسعد الناس إن دافع عنك الله، أنت قم بالأسباب وتوكل على رب الأرباب وانتظر من الله تحقيق وعده لك، وقوع وعد الله أقوى من كل شيء قال تعالى:

﴿وَاللَّهُ غَالِبٌ عَلَى أَمْرِهِ وَلَكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ﴾ (٢١)

[سورة يوسف]

هذه الآية وردت في سورة يوسف عليه السلام، كانوا اثني عشرة إخوة إنتمروا على أخيهم ووضعوه بالجب ليومت ! فإذا به يصبح عزيز مصر، قال تعالى:

﴿وَجَاءَ إِخْوَةُ يُوسُفَ فَدَخَلُوا عَلَيْهِ فَعَرَفَهُمْ وَهُمْ لَهُ مُنْكَرُونَ (٥٨)﴾

[سورة يوسف]

فالدَّكِي يقرأ القرآن ويتتبعُ وعود الله عز وجل ويعمل موجباتها وينالها حبًّا وكرامة، فالله تعالى ما ذكر هذه القصة لتكون قصة ! لا، بل ذكرها لتكون قانوناً ننتفعُ بها نحن الآن في القرن العشرين، المرضعة بيد الله، والطفل بيد الله، وكذا القلوب بيد الله، وحركة الرياح وكل شيء بيده، وبالنهاية قال تعالى:

﴿أَلَا إِنَّ وَعْدَ اللَّهِ حَقٌّ وَلَكِنَّ أَكْثَرَهُمْ لَا يَعْلَمُونَ (٥٥)﴾

[سورة يونس]

مُلَخَّص القصة ؛ يجب أن نعلم أن وعد الله حق، والإنسان إذا كان مُغْطَى بِوَعْدِ اللَّهِ فهذا أسعدُ الناس تجدُ شابًا لا بيتًا ولا عملاً ولا زوجةً ولكنهُ مستقيم، فالله تعالى يخلق من الضعف قوَّةً، ويُيسِّر له، ويمدُّه بالمال، ويُرَوِّجُه دون أي شيءٍ وآخر تجد معه ألف مليون يتدمرون بالنوادي الليلية، والأمراض، عبيد أعطيتك مالاً فماذا صنعتَ فيه ؟ قال: يا رب لم أنفق منه شيئاً مخافةً الفقر على أولادي من بعدي فقال: ألم تعلم أنني أنا الرزاق ذو القوَّة المتين، إن الذي خشيتُه على أولادك من بعدك قد أنزلتُه بهم ! حدتني أخ فقال لي: أحد الناس ترك لأولاده محلاً بالحمراء ومعملاً وبيتاً بالمالكي وسيارة، وأقل من عشر سنوات لم يبق معهم ولو قرشاً تدمروا، وتورطوا بصفقات خاسرة واضطروا أن يبيعوا الأملاك واحداً واحداً، والثاني قال له: أعطيتك مالاً فماذا صنعتَ فيه ؟ قال: يا رب أنفقتُه على كل محتاجٍ ومسكينٍ لتقتي أنك خير حافظاً وأنت أرحم الراحمين، قال: يا عبيد أنا الحافظ لأولادك من بعدك، فأحياناً يموت إنسان يترك خمسة أولاد أيتام، يُصبحون أعلاماً بالمجتمع ويأتي آخر لم يتق الله في كسب المال، ويترك لهم ثروة طائلة ويكونوا من بعده أشقياء.

والحمد لله رب العالمين